

الجريمة من منظور أنثروبولوجي

The crime from an Anthropological perspective

تاريخ النشر: 2025/06/11

تاريخ القبول: 2025/05/30

تاريخ الإرسال: 2024/05/10

رزاق رزيقة¹¹ مخبر التربية، الانحراف والجريمة في المجتمع، جامعة عنابة، الجزائر،EMAIL : rezakrazika@gmail.com

الملخص:

شكل مسار علم الأنثروبولوجيا لحظة العبور المعرفي الحاسم، بدءا من الاهتمام بدراسة المجتمع البدائي ومحاولة فهم سلوك "الآخر"، نحو دراسة المجتمع المعاصر وبحث قضاياها الأكثر تعقيدا، وبما أن أي سلوك يصدر عن الإنسان يشكل أرضية خصبة للدراسات الأنثروبولوجية، فقد جاءت هذه الدراسة كمقاربة تحليلية اعتمدنا فيها حقل أنثروبولوجيا الجريمة كمدخل تفسيري، يقوم على تفسير السلوك الإجرامي انطلاقا من المجرم. وقد توصلت الدراسة إلى أن الجريمة هي ثمرة تفاعل المكونات الداخلية والخارجية للمجرم، والقائمة أساسا على دياكتيك المتأصل والمكتسب.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا؛ الجريمة؛ المجرم؛ أنثروبولوجيا الجريمة.

المؤلف المرسل: رزاق رزيقة، الإيميل: rezakrazika@gmail.com

Abstract:

the anthropology moved up to be interested in studying primitive society and trying to understand the behaviour of the "other" and its simple issues, to studying contemporary society, since any human behavior is fertile ground for anthropological studies.

This study was therefore an analytical approach in which we adopted crime anthropology. the study found that the crime comes from an individual genetic or acquired defect, which is the result of the interaction of this character when it collides with the outer center.

Keywords :the Anthropology ; the crime ; the criminal ; the anthropology of crime.

1. مقدمة:

ما الإنسان؟ يحمل هذا التساؤل محتوى أنثروبولوجي محض. على إثر إشكالية هذا التساؤل، توجهت العلوم الانسانية صوب الأنثروبولوجيا لإيجاد إجابة عن ماهوية الكائن المتأنس أو ذلك "المجهول" على حد تعبير ألكسيس كاريل، والمشاكل التي يطرحها الشرط البشري. ولعله من المفيد في هذا المقام، استحضار موقف أب الأنثروبولوجيا البنيوية كلود ليفي ستروس الذي عبر عن قلقه بشدة، إزاء المشاكل الذي تعترض مجتمعاتنا في ظل ثقافة العولمة، ففي مُحاضرة ألقاها سنة 1986م بطوكيو بدعوة من مؤسسة شيزاكا، أكد أن علم الإناسة أو الأنثروبولوجيا لا يهتم بالمشكلات البسيطة، التي يُخلفها الإنسان الأول فقط-كما كان يُروج لها-، وإنما تُبدي اهتماماً مُنقطع النظير حول مشاكل العالم الحديث، دون الإدعاء بأنها قادرة على حلها لوحدها بل تأمل لفهمها على نحو أفضل، انطلاقاً من التوقع حول ذات الإنسان في قالب علائقي شامل. فهذه الكائن المتأنس يعثي في الأرض فساداً، دونما وجه حق مُتخذاً من أخيه الانسان عدواً له، ما استدعى ضرورة مُلحة من

الأنثروبولوجيا لإنشاء حقل معرفي يُعنى بالذات المجرمة التي أُعتبرت في بادئ الأمر مرضاً يُصيب الجسم الاجتماعي ما أدى بالعلماء في تلك المرحلة اعتبار الجريمة مرضاً يستوجب إهتمام العلوم الطبية قاطبة، ومع أقول هذه الأطروحة بات لازماً تجذير الأسس الأنثروبولوجية الأولى وربط السلوك الإجرامي بالسياق السوسيوثقافي للذات الاجرامية. وقد تم تبني المنهج الأنثروبولوجي البنيوي في هذه الدراسة الذي يعتمد على التفكيك التجزئة وإعادة التركيب من أجل الفهم الشامل لحركية الجريمة ضمن سياقات اجتماعية وثقافية متنوعة انطلاقاً من تقنية الحفر والتنقيب المعرفي من أجل دراسة الظاهرة الاجرامية دراسة مُعمقة في إطار تلاقي البنية الذاتية والموضوعية التي تتجلى في الذات الاجرامية والثقافة المجتمعية.

قال الله تعالى في سورة الأعراف الآية 24 "وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ". في تأويل ماورد من أهل العلم، أن الله جل ثناؤه أمر بالإجماع بإنزال آدم وحواء وإبليس والحية أعداء بعضهم لبعض في الأرض، في حين اختلف أهل العلم في تأويل قوله جل جلاله "اهْبِطُوا" على أن آدم وحواء ممن عُني به. هنا خطاب مقدس وصرح بأن الطبيعة الإنسانية محكوم عليها بالعداوة إلى يوم يبعثون. والعداوة في المعاجم العربية تعني الخصام وإرادة السوء. من فعل اعتدى، يعتدي، اعتد، اعتداءً، فهو معتدٍ والمفعول معتدًى عليه. وقد كان أول سلوك مخالف للطبيعة البشرية لآدم وحواء، حين أمرهما الله أن لايقربا الشجرة، لكن الشيطان وسوس لهما بأنها شجرة الخلد، فأكلا منها وأصبحا على مافعله نادمين، فكان جزاء الله أن أنزلهما من الجنة إلى الأرض، إذ يُجسد هذا السلوك أول تخطي إلهي وتُجسد بذلك أول معصية، أول خطيئة، أول مخالفة ربانية وأول سلوك انحرافي للبشرية، هكذا نفتتح سجل الانحراف والجريمة في شكل جدلية بين اللذة والألم.

2. عوامل ظهور أنثروبولوجيا الجريمة:



ارتبط علم الأنثروبولوجيا بالمشروع الموجه نحو الآخر، انطلاقاً من المركزية إلى الهامش فالمركز هو الذات في حين يعبر الهامش عن الآخر، من هنا تنطلق شكلانية العلاقة بين الذات والآخر، بحيث لا يلعب الاختلاف دوراً معرفياً فحسب وإنما دوراً معيارياً أيضاً. فالبحث عن ماهوية الإنسان في شاكلة التساؤل: ما للإنسان؟ تبحث في الخطاب المعياري للإنسان، انطلاقاً من الإرادة القائمة على ثنائية الخير والشر. فالإنسان حسب العقيدة الأنثروبولوجية مُذنب على الدوام ولا يسعنا سوى الافتراض بأن الإنسان ذلك "الشرير" دلالة عن النزعة الانحرافية عن مُسلمات القانون الأخلاقي. (مجيديلة، 2017) بل وإن ذلك الكائن المُتأسس هو الشر بذاته، على اعتبار أن الشر مُتجذر، فطري ومُتأصل في الطبيعة الانسانية، فالشر جذري في الكائن المُتأسس بمعناه الأنثروبولوجي الذي يشمل كل الشرط البشري، حسب المشروع الكانطي.

وتماشياً مع ماتم ذكره، فإن المشروع الأنثروبولوجي ينطلق من افتراض مُؤداه أن الانسان كائن شرير، وتلك القسوة ماهي إلا خلاصة جذرية الشر في الإنسان وأصله، والقسوة من وجهة نظر كاثلين تايلور تنطوي على الإرادة الحرة، والمسؤولية الأخلاقية لدى القائم بالفعل العنيف. (المهنساوي، 2014) فقد شهد تاريخ الجنس البشري سجلاً إجرامياً يزخر بالقسوة، والعنف، وقد تبوأ الأساطير ذلك التاريخ الإجرامي للجنس البشري، وهي تروي وتقص على البشر كيف تأصل العنف والقسوة في البشرية، فبعدما قطع قابيل رأس أخيه هابيل، يكون قابيل (الإله البابلي)، قد أعطى إشارة على نشأة الكائن العنيف من دم العملاق الجبار في الأسطورة الإغريقية ومن دم بروشا في الديانة الهندوسية. (بوخريسة، 2020). تجدر الإشارة في هذا المقام، أن أسطورة الصراع بين الأخوين، تعتبر قاسماً مشتركاً بين العديد من الحضارات والأديان، وبقطع النظر عن خصوصية جريمة قتل الأخ لأخيه، فإن الأمر يتعلق دوماً بقتل الإنسان لأخيه الإنسان. من هذا المنطلق، فإن الأسطورة تقول شيئاً عن مانريده وما يحاكيه خيالنا، بل وتضفي معنى للعالم، على اعتبار أنها متشابكة في نسيج المنظومة الاجتماعية ويمكن أن تكشف عن المعنى. وفقاً للأساطير كمنظومة رمزية قائمة بذاتها في السجل الأنثروبولوجي، فمنذ أن الكائن المُتأسس رحاله على سطح الأرض حطت معه ضروب النزاع والقتال، بل وإن جذور الضرر والعنف في

المجتمع قائم على التنافس والأنانية في الفهم النظري والشعبي للجريمة. (أحمد، 2020) بل وإن نزعة التنافس تتولد من الغريزة البشرية، باعتبارها الدافع العميق لتحقيق الوجود الذاتي، وهي نزعة بدأت عنيفة حيث أخذ البدائيون الجانب الدموي منها، و كان الرجل البدائي لا يكتفي بقتل أخيه فقط بالوسائل البدائية، بل يقتل زوجته وأطفاله، وقد امتد الأمر للأزمنة الحديثة حيث ابتكر الكائن المُتأنسن وسائل حديثة للمنافسة، غير أنه لم يتنازل عن مكتشفه القديم في الحرب والدماء والنهب، كأدوات مستدامة لتحقيق السلطة والتنافس. (الغذامي، 2021). فليس للصعوبة بمكان، في استنتاج أن الكائن المُتأنسن الحديث لا يختلف عن أسلافه القدامى، بل هو نسخة مُستحدثة منهم فقط، مثلما أن المدينة الحديثة لا تختلف عن القبيلة البدائية في قدرتهما معا في تبني مفاهيم التنافس، التي تدفع بالكائن المُتأنسن للتفرد، بالإلتباس والإزدواجية باعتبارها أهم مقومات الشرط البشري -على حد تعبير الأنثروبولوجي دافيد لوبروتون-، فهو وديع، ثائر في أحيان، ولطيف، عنيف أحيانا أخرى، عقدة التوازن الاجتماعي هذه تكشف أن ثنائية الحب والكراهية هي خاصية ثقافية في الجنس البشري. و مبدأ التقابل والتمايز هذا، هو المربط الأساسي الذي يبحث فيه المشروع الأنثروبولوجي.

من خلال الطروحات الأنفة، بدى جليا أن الطبيعة البشرية منذ الوجود الأثري اتسمت بالقسوة والشر، ما يستأهل التأويل أن بنية الإنسان ترتكز في جوهرها على العنف كاستجابة سلوكية، هذه النقطة بالأساس أشعلت فتيل الاختلافات الأيديولوجية بين منظري أنثروبولوجيا الجريمة إنطلاقا من تساؤل محوري: إذا كان الشر مُتأصل في الطبيعة البشرية فلماذا يُجرم فرد؟ في حين لا يُجرم فرد آخر؟

حُرِي بنا في هذا المقام، طرح ما جاءت به الرؤية الموضوعية للجريمة انطلاقا من سجل المحاكمات في العصور الوسطى، فقد كانت الفراسة في بادئ الأمر هي الفيصل في تحليل الفعل الإجرامي، انطلاقا من السمات والعلامات الشاذة للشخص، فإذا اشتبه الحاكم بشخصين عن جريمة واحدة ولم يتيأ له الدليل الكافي لإدانة أحدهما عن تلك الجريمة، ففي هذه الحالة فإن أقبحها وجها وأقلهما وسامة أقرب لارتكابه الجريمة من الشخص الآخر. (الدوري، 1984) إن هذه المعرفة تتصل بما يسمى الفراسة، التي أتقنها

الإنسان منذ فجر نشأته، منذ أن جادل الإنسان حول ماهوية نفسه. فقد بدأ أول الأمر يصنف سماته في صنوف ومجموعات، عن طريق كشف العلاقة بين تركيب الجسم وملامح الجسد وبين البنية الأخلاقية للفرد ومُخرجات سلوكه، حينها بدأت مجالات الفراسة تتسع حتى كادت موضوعاتها تتناول كل جزء من أجزاء الإنسان كظاهرة انسانية. (الدوري، 1984). إن علم الفراسة إبتدأ منذ القديم مع الإغريق فقد قاموا بدراسة مظاهر جسم الإنسان، وحاولوا إعطاء تفسيرات لسلوكيات الكائن المُتأنسن، اعتقادا منهم على علائقية أخلاقيات وسلوكيات البشر أو خصالهم وحظوظهم ومستقبلهم، فقد بحث أرسطو في علم الفراسة مُنطلقا من افتراض مُؤداه أن وصف السمات الجسمية والعلامات الترس تظهر في لون العينين أو لون الشعر تُمكننا من التعرف على الازواع الأخلاقي للفرد. (طالب، 2002) بعد عصر الأنوار وولوج حكم العقل في التحكيم العلمي، بدأت علوم الإنسان تتصبغ بالصبغة الوضعية وسُمح للتحليل العلمي باعتلاء الهرم، بدأت الانجازات العلمية تطفو على السطح، فقد شهد القرن التاسع عشر العديد من الثورات في مختلف فروع المعرفة وخاصة المعرفة البيولوجية، على ي العالم تشارلز داروين **Darwin** منذ صدور كتابه أصل الأنواع، تبعه كتابه الآخر أصل الإنسان ، حيث كان من ضمن نتائج هذا الفكر التطوري المتعلق بالطبيعة الإنسانية، ظهور المدرسة الوضعية في علم الجريمة. (الوريكات، 2004) إذن، فقد ارتبط السلوك الاجرامي في بادئ الأمر بالمعرفة البيولوجية، التي تُشيد بنشأتها المدرسة الوضعية. كيف نُفسر هذا الموقف؟

بدأ ملامح علم الجريمة الوضعي تظهر بجلاء ، في بادئ الأمر في القارة الأوروبية، وبالتحديد في إيطاليا إذ تعتبر دراسات كل من الإيطالي ديللا بورتا **della porta**، لافارتا **Lavarta**، ودي لاشامبر **De la chambre**، من أبرز الدراسات الجنائية، بحيث تناولت بحث العلاقة بين تركيب جسم المجرم وملامح وهيئة جسده، و طبيعة سلوكه. (نشأت، 2008) ولعل أهم تلك الدراسات كانت دراسة ديللا بورتا، الذي نشر نتائجها في كتابه الشهير – السمات الخارجية للفرد- مُرتكزا على فكرة معرفة المجرم من خلال السمات الخاجية، وحاول دراسة الطبائع الفردية انطلاقا من السمات الجسمية، وقد ركز

على مناطق معينة من الجسم مثل الوجه، العينين، الجبهة وشكل الأنف. وقد توصل من تلك الدراسة إلى أن سمات جماجم بعض المجرمين تشبه إلى حد كبير جماجم بعض الحيوانات المتوحشة، وهي الفكرة التي أخذها عنه فيما بعد لومبروزو وطورها إلى فكرة الردة الوراثية.

تطورت بعدها النظرة العلمية للسلوك الإجرامي، على يد كل من عالم التشريح النمساوي فرانتز جوزيف غايل **Frantz Gall** و الألماني غاسبر سبيرزهام **Gasper Spurzheim**، اللذين أسسا علم الفرينولوجيا أو علم فراسة الدماغ، حينها بدأ المدخل البيولوجي في الهيمنة على العلوم المهتمة بالظاهرة الإجرامية، انطلاقاً من التركيز على التكوينات الداخلية وعلاقتها بالسلوك الإجرامي، وقد ارتكن غايل وهو أصلاً طبيب ومحلل نفسي، في زاوية التحليل الأحادي للسلوك الإجرامي، إلى أن سبب الجريمة هو ضعف أو نقص خلقي سببه خلل في النمو الطبيعي للدماغ والمخ. (طالب، 2002). وترتكز مقارنة الفرينولوجيا في التسليم بحقيقة علمية قائمة على أن الشكل الخارجي للجمجمة، يتطابق مع الشكل الداخلي الذي يحكم المخ، وعلى وجه الخصوص التمرکزات العصبية، حيث أكد غايل أن العقل يحوي 26 ملكة، والتي يمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق بالمخ تحتوي كل منطقة منها جهازاً معيناً، يشتغل على طائفة من تلك الملكات التي تقوم بوظائف معينة في العقل، وهي الغرائز الدنيا، المشاعر الأخلاقية، الملكات الدهنية. وقد أكد غايل أن طائفة الغرائز المتمركزة في المنطقة الأولى هي التي تشكل السلوك الإجرامي وبصفة خاصة غريزة النضال، أو مايقابلها التنافس، غريزة حب التملك، غريزة الكتمان. (منصور، 1979) بعدها توالى الدراسات للظفر، بالمكانة الرائدة في ميدان البحث في السلوك الإجرامي، حيث قام الطبيب الفرنسي والأنثروبولوجي بول بروكا **Paul Broca** مؤسس علم الأجناس البشرية الحديث، إذ يعود إليه الفضل في إنشاء أول جمعية أنثروبولوجية في مدينة باريس عام 1859م، مُنطلقاً من افتراض مُؤداه أن السلوك الإجرامي له علاقة بالبروفيل البيولوجي للفرد، وأضاف البروفيل النفسي فيما بعد، أي التكوين النفسي والعقلي للفرد وعلاقته بالسلوك الإجرامي، وعلى اثره توالى الدراسات الأنثروبولوجية التي تناولت دراسة وتشريح جماجم المجرمين، وقد شكلت هذه الدراسات الرائدة، البداية

العلمية الصحيحة لظهور علم أنثروبولوجيا الجريمة. كما ساعد على ظهور هذا العلم بوجه خاص، تلك الدراسات التشريحية الجنائية التي قام بها عدد من أطباء السجون الإنجليزية مثل ويلسون Wilson، طومبسون Thomson، ونيكلسون Nicholson. تناولت تلك الدراسات البحث في النموذج الأنثروبولوجي للمجرم. (نشأت، 2008)

كانت لتلك الدراسات، تأثير عميق في حقل الأنثروبولوجيا الجنائية، إلا أن الظهور الفعلي لهذا الحقل، لم يظهر سوى مع ظهور المدرسة البيولوجية الإيطالية على الساحة الفكرية في منتصف القرن التاسع عشر. ارتبط سجال المدرسة الإيطالية باسم الطبيب الإيطالي سيزار لومبروزو Lombroso (1835-1909) الذي انطلق من تساؤل، ظل يُراود علماء الأنثروبولوجيا الأوائل: لماذا يُجرم فرد دون آخر؟

في الواقع، لكي نترجم موقف لومبروزو بمصداقية، وجبت الإشارة إلى الكلمة المفتاحية التي يُقيمها من أجل تحليل يتميز بطابع علمي، هي "الإرتداد الوراثي"، يمكننا القول بدايةً، أن مقارنة "الارتداد الوراثي" أو "الرجعية" تم تناولها كبراديفم محدث في ميدان الجريمة و التحليل الاجرامي على هذا تعززت النبذة اللومبروزية بالطرح الدارويني، إذ تسمح الرؤية الانسانية أن سلم التطور الدارويني له نصيب في التحليل الاجرامي، ذلك أن المناعة الاجرامية مُتأصلة في الانسان بل وتلك الاستجابات السلوكية ماهي إلا رجعية عملية التطور. مهما بدى المنظور تطوريا فقد تم سياقته من خلال التأريخ الطبيعى للبشرية، ذلك أن مبدأ "الإرتداد الوراثي" "Atavism" ليس عملية أفقية للأمام، بل تعني "فكرة العودة إلى الوراء" بالنسبة للمجرمين. (others, 2018) مُشيراً إلى وجود بعض الجرائم كاللواط وقتل الأطفال، كانت في عهد بعيد تُعتبر جزءاً من مقومات ثقافة اليونان، الصين وروما القديمة، بل وذهب الطرح اللومبروزوي إلى أبعد من ذلك في اعتبار أن هذه الجرائم ماهي إلى شظايا العصور والثقافات السحيقة.

تميزت أعمال لومبروزو بالخصوصية الحصرية حينها، كونه طبيب في المنظومة العسكرية عشية 1870م، وبصبغة الملاحظة والمعايشة الفعلية للعساكر، استنتج جملة من الخصائص مفادها أن الجنود المنحرفين يتسمون بصفات فيزيقية خاصة، كالوشوم

على الأجساد، عكس الجنود العاديين، إمتدت الدراسات إلى تشريح جماجم الجنود، أسفرت النتائج إلى أن جماجم الجنود المنحرفين تحوي غورا أسفل الجمجمة يشبه جماجم القردة والطيور المفترسة، وهناك قسم أنواع المجرمين انطلاقا من المجرم بالميلاد، المجرم بالفطرة، المجرم المجنون، المجرم بالعاطفة، المجرم بالصدفة. كما هو شأن تصنيفات المجرمين فإن مؤلف "الرجل المجرم" "L uomo delinquente" 1896-1897م أحدث ثورة كوبرنيقية في ميادين الفهم البشري للسلوك الإجرامي، نُشر المؤلف حينها بخمس مجلدات، وُسِمت الطبعة الأخيرة بالأطلس، وتأتى إنجازه على الجداول، الخرائط، الرسومات البيانية والصور الثلاثية حول الجمجمة والأعضاء البشرية وتمثيلاتها كمعادلة إجرامية. انطلاقا من هذا الإبتداع العلمي الحصري-حينها- تفتن علماء البيولوجيا والأطباء إلى أن الجسم البشري مُعجزة لأبد من الإرتكان حول البحث فيها، والبحث حول كل مُخرجاتها واستجاباتها، بما فيها الإستجابات السلوكية. أخذت العلوم الطبية حينها الجريمة كـ مجال شيق للدراسة، ففي رأي العديد من المُحدثين فإن المُقاربة اللومبروزية أضفت الطابع الطبي على الجريمة (cesare lombroso, 2006) وتم على اثره فحص الشخص المجرم فحصا إكلينيكيًا وإستجلاء شتى التنغصات الفيزيكية وعلاقتها بالاستجابة الاجرامية، أخذ حينها علم الجريمة يتخذ الطابع الطبي كنموذج يُعتد به في الدراسات الاناسية، من هنا برزت فكرة أن الجريمة مرض يُصيب الجسم الاجتماعي. على إثر هذا المبدأ، فإن الجريمة كانت من ضمن الإهتمامات الأساسية للعلوم الطبية.

أخذت المقاربة اللومبروزية، تستحوذ على الموائد العلمية، إلى أن ذلك اللمعان المعرفي لم يَدُم طويلا، ففي سنة 1871م شكل التيار اللومبروزي نكسة إبستيمية على مستوى الساحة الفكرية في مجال الجريمة، إدعت حينها معظم التيارات أن الحقل المعرفي "أنثروبولوجيا الجريمة" هو تيار عُنصري بامتياز، تشكّل هذا الاعتقاد منذ صدور الكتاب الموسوم " الرجل الأبيض والرجل المُلون". انطلقت رؤاه من إفتراض مؤداه أن الرجل الملون ينتهي للسلالة الأولى من الفصيلة الأحادية لإنسان النباداتريل، شكل هذا الطرح حينها أزمة تناظرات على مستوى التيارات الفكرية، مُنّدين باكتشافات لومبروزو العُنصرية. توانت دراسات لومبروزو العرقية عن الطرح وقُيُض الطرح العنصري بحُجة أنه

مُخالف للقاعدة العلمية. وبحلول عام 1884م أعلن رسمياً تنويع التيار الفكري " أنثروبولوجيا الجريمة" بماسموه مدرسة "لومبروزيانا" انطلاقاً من إيطاليا، ألمانيا، روسيا، فرنسا، المجر وبلجيكا، تبنت تلك المدارس استخدام المنهجيات الأنثروبولوجية انطلاقاً من جسم المجرم. (others، 2018)

توالى الانتقادات، حتى انعقاد مؤتمر أنثروبولوجيا الجريمة الذي أقيم في روما سنة 1885م وباريس 1889م، رفض حينها السواد الأعظم من العلماء، أسس مقارنة لومبروزو، بحيث أصر الكسندر لاسان **Lacasagne** وبول بروارديل **Brouardel** بأن البيئة الاجتماعية المحيطة، لها دور في تشكيل السلوك الإجرامي أكثر من الوراثة. وفي عام 1896م أقيم في جنيف مؤتمر لأنثروبولوجيا الجنائية، أعلن فيها أنريكو فيري **Fierri** صراحة وكقرار رسمي أن أنثروبولوجيا الجريمة لم تعد تركز فقط على العوامل العضوية للمجرم، وإنما تم الاعتماد على العوامل الاجتماعية كعوامل مساهمة في إنتاج الإستجابة الإجرامية. (others، 2018)

أضحى ميدان أنثروبولوجيا الجريمة، منذ ذلك الحين يخطو خطواته بثبات وحرصاً، فلم تعد تبحث في المسببات بقدر إهتمامها بالفهم، والتنقيب في دلالات أعمق من الظاهر. (caterino، 2023) تم الاستعانة بالأنثروبولوجيا الرمزية، ومن منطلق العلامات والإشارات البشرية تُصبح سمات المجرمين قوالب نمطية مُحددة، ومن منظور الإشارات والعلامات الاجرامية أصبح بالإمكان اعتبار أنثروبولوجيا الجريمة علماً رمزياً بامتياز. كانت نهاية القرن التاسع عشر خير تمثيل لذلك تميزت هذه المرحلة بأعمال الإيطالي باولو مارزولو **Marzolo**، وولادة بحثه الشهير الموسوم " مقال عن العلامات " **"Saggio sui Segmi"** سنة 1966م، جادل خلالها مارزولو أن الاستجابات السلوكية الانسانية تتعلق بالدلالات الصوتية، الإيماءات والبروفيل الفيزيولوجي للإنسان، مُعتبراً أن هذه العملية مُرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعناصر الثقافية للمجتمعات. (Orru، 2023) وهو نفس ماذهب إليه لومبروزو قبل ذلك، إلا أن مقارنته لم تُحلل بالجدية المنهجية المُتعارف عليها، وبهذا أعاد مارزولو الأخذ بزمام الطرح الانثروبولوجي للاستجابات السلوكية، وتفسير الانتاج البشري على أساس المنظومة الرمزية. واستخلاصاً لما سبق،

وعملا بالتلاقح المعرفي بين سيميائية مازرولو وأنثروبولوجية لومبروزو، أسفرت العلاقة عن ميلاد الجسد والثقافة كأنساق رمزية، للكشف عن كيفية تأثيرها على التفاعلات الثقافية المجتمعية.

على المستوى الإجرائي، لعله من المفيد الإشارة إلى إحدى آيات الله البينات، في إثبات صادق ومقدس لسمات المجرم. في قوله جل جلاله في سورة الرحمان الآية 41 "يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ". بلغت الآية في تأويل ماورد من أهل العلم أن المجرم يعرف بعلاماته الخاصة وهي سواد الوجه وزرقة حول العين، وهذا مبلغ عظيم بجانب للصواب، فقبل إصرار المقاربة اللومبروزية على السمات والعلامات الخاصة بالمجرم، فإن القرآن الكريم كمصدر علم وعقل قد أثبت في غير موضع إعجازات علمية أثبتها العلماء فيما بعد. إن القرآن الكريم خير مصدر وأصدق في العلم أثبت صحة هذا المضمون قبل آلاف السنين، في خطاب مقدس وتأكيد صريح من رب الجلالة أن المجرم مقولب بسمات وصفات خاصة به، تميزه عن الإنسان العادي.

ومن زاوية أخرى، وعلى خطى ثابتة، أتم ورثة مدرسة اللومبروزيانا المشروع العلمي، من خلال عدة دراسات حديثة، وجدت أهمها أن مصدر السلوك الإجرامي هو إرتفاع هرمون "تستوستيرون". وقد وجدت الأبحاث أن هذا الهرمون يرتفع كثيرا لدى نزلاء السجون، وإذا كانت هذه الدراسة مرتبطة بالجانب البيولوجي، فإن الدراسات الوراثية النفسية وجدت أن هناك جينات معينة كجين MAO الذي يرتبط بهرمون التستوستيرون، فعندما يفتقر الفرد لهذا الجين بصورة تامة سيتصف الفرد بالسلوك العنيف، كذلك وجدت الدراسات أن هناك إنزيم يفرز من قبل الخلايا العصبية يشترك مع التستوستيرون يدعى "أوكسيد النتريك" يعمل هذا الإنزيم على توليد السلوك العدواني، وفي عام 1993م اكتشف الدكتور سنايدر وزملاؤه في جامعة جونز هوبكنز الأمريكية، أن هناك جين مسؤول عن هذا الإنزيم، وذلك في تجربة أجراها عندما أزال جينا من فأر ذكر، نتيجة لذلك أظهر الفأر تغيرا كبيرا في تصرفاته إذ أصبح عدوانيا وقاسيا ومغتصبا وقاتلا لأفراد جنسه، فاستنتج العالم أن هذا الإنزيم يعمل كمكايح للتصرفات الإنفعالية، فإذا

ما فقد أو قل إفراز هذا الإنزيم فقد الكائن السيطرة على تصرفاته. وقد أثبتت التجربة نجاحها على قرود الشمبانزي أيضا. (صالح، 2013)

ومع غزارة الأبحاث الأنثروبولوجية والمحاولات الجادة لفهم الجريمة، كشفت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة عن أداة ناجعة للتحليل تركز في عمق الثقافة الشعبية، باعتبارها المقولب الأساسي للهوية الاجتماعية. فكيف تعمل الثقافة الشعبية على تفسير الجريمة؟

توصلت الدراسات الحديثة، إلى أنه من أجل فهم الجريمة، لا بد من قراءة نص الثقافة الشعبية، قراءة تتسم بالعمق، بل إن الجريمة والعقوبة والعدالة، كانت عناصر أساسية في شتى وسائل الترفيه الثقافي المنتشرة، وذلك من خلال الشخصيات والقصص التي أدرجت في الروايات، الأمثال والحكايات، الأفلام، المسلسلات البوليسية والبرامج التلفزيونية. وهي قصص تعكس واقع الثقافة الشعبية. التي تمنحنا معلومات أيديولوجية حول المجتمع، حيث أنها تطرح تحليلات هامة على الشاشات، من خلال محتوى حيثيات القضية وتفكير الجاني وشخصيته، لذلك فإن الروابط القوية بين الثقافة الشعبية والهياكل الاجتماعية هي محور للتحليل، حيث يقوم بمهمة الخطاب العنقودي عن طريق تحليل الفهم الثقافي الأوسع للسلوك الإجرامي. (أحمد، 2020) إضافة إلى الرموز التي تبثها الأمثال والحكم والروايات الشعبية انطلاقا من معتقدات متأصلة في النسيج الاجتماعي على حد تعبير رائد الأنثروبولوجيا التأويلية جيلفورد جيرتز أن الإنسان صانع شبكة الرموز وعالق في شبكها، تلك الرموز المستمدة من الثقافة الشعبية لها دور أساسي في تنميط النموذج التصوري للجريمة وخلق معانها.

نافلة القول، وإتماما للمسيرة الفكرية لأنثروبولوجيا الجريمة، فلا بد من طرح المكونات البنائية للإستجابة الإجرامية. وهذا ماسنقوم بطرحه بالمحطة التحليلية الآتية.

3: المكونات البنائية للجريمة:

تُعنى أنثروبولوجيا الجريمة بالفرد المجرم انطلاقاً من مُسببات تدفع شخصاً بذاته إلى ارتكاب جريمة معينة، وتنقسم إلى مكونات داخلية وأخرى خارجية وسنحاول تسليط الضوء عليها كالآتي:

1.3. الوراثة: أثبتت الدراسات أن السلوك الإجرامي يتم وراثته عن الأصول، فالإبن قد يرث صفات عضوية أو نفسية أو عقلية عن آبائه وأجداده تدفعه إلى مهاوي الجريمة على سبيل الحتم، وقد استند أسلوب دراسة شجرة العائلة على تتبع الإجرام في عائلة الشخص المجرم خلال أجيال متعاقبة، ومدى إنتقالها للفروع من بعد. (الوريكات أ، 2010) ومن الدراسات الهامة بهذا الصدد تلك الدراسة التي أجراها "بومان" على ذرية شخص يرمز له بإسم مستعار (زيرو) تبين له بعد تعقبه لسيرورة حياة تلك العائلة، أن أفرادها الذين زاد عددهم على 800 شخص، وعلى مدى ستة أجيال، معظمهم من غير الأسوياء. في حين أن أسلوب دراسة التوائم قد أثبت الصلة بين الوراثة والإجرام من خلال دراسة نوعي التوائم المتماثلة وغير المتماثلة، وقد أثبتت أهم الدراسات أن التوائم المتماثلة كانوا متوافقين جميعهم في سلوكهم الإجرامي، أما غير المتماثلين فكانوا جميعاً متنافرين في مسلكتهم الإجرامية.

2.3. التكوين العضوي: تلعب زيادة إفرازات الغدد أو خمولها أو قلة إفرازاتها، دوراً هاماً في الطبع وأسلوب السلوك. (رشوان، 2005) ويتمثل ذلك في الغدد النخامية، والغدة الدرقية، والغدة التناسلية. وتعرف بالغدد الصماء لأنها مقفلة إلا من قنوات تخرج ماتفرزه من هرمونات كيماوية تساعد على النمو الجسدي والعقلي للفرد، فلو زاد معدل إفراز هذه الغدد أو نقص يحدث إضطراب في النمو، فالنقص في إفراز الغدة الدرقية ينتج عنه تأخر عام في النمو الجسدي والعقلي، مما ينتج عنه فرد ضعيف عقلياً، ومشوه جسدياً. وكذلك فإن الإفراط في إفراز هذه الغدة له صلة وثيقة بجرائم العنف والدم فهو يؤدي إلى حالة من الإضطراب والقلق والتوتر الإنفعالي.

3.3. المرض: تتعدد الأمراض العضوية ولكن ليست كلها مرتبطة بالجريمة، فقد أثبت العلماء مجموعة معينة من الأمراض التي لها صلة وثيقة بالجريمة، كالسل والزهري،

فقد أكدت الأبحاث التي قام بها الإيطالي "دي تيليو" و البلجيكي "فيرفاك" وجود نسبة لا يستهان بها ممن يعانون من مرض السل بين مرتكبي الجرائم وأسرهم. (الوريكات أ، 2010). إذ يؤثر مرض السل على القدرة العضوية للشخص، مايولد لديه اضطرابا نفسيا يجعله شديد الحساسية والانفعال والغضب، بسبب وصمه من المجتمع خشية العدوى فيحمله ذلك الرفض على الانحراف كرد فعل على الرفض الاجتماعي. أما مرض الزهري فتسفر عن المريض اضطرابات وظيفية ونفسية لدى الفرد، قوة السيطرة على غرائزه وكبح جماح النفس، مما يسهل عليه ارتكاب الجريمة لما يتصف به سلوكه من شذوذ وانحراف، ويصيب هذا المرض القدر الأكبر من الشاذين جنسيا.

ومن زاوية أخرى، وتتمينا للجهود التي بُدلت لإصفاء النزعة السوسيوثقافية، كمكونات، مُكملة، فلا يسعنا في هذا المقام سوى إستعراض ما آلت إليه المكونات الخارجية موازاة مع المكونات الداخلية، وأثرها في تكوين الإستجابة الإجرامية، وقد جاءت المكونات الخارجية كالآتي:

3.4. النمط الثقافي: انطلقت عالمة الأنثروبولوجيا روث بندكت Benedict من

افتراض أساسي مؤداه، أن سلوك الفرد ماهو إلا نتاج للثقافة السائدة في المجتمع، وقد أوضحت في كتابها الشهير الموسوم -الأنماط الثقافية-، أن الثقافة ماهي إلا صيغ ومكونات تتكامل في إطار نسق عام مهيمن على سلوك الفرد في المجتمع، ومن ثم فشخصية الفرد هي من صناعة الثقافة السائدة، كل مكون منها يؤثر في الشخصية بحجم معين، بناءا على ظروف الفرد وحاجاته. (مصباح، 2013). إن النمط الثقافي يكون له رد فعله العميق، في تركيب سمات الشخصية. وفي هذا الصدد يؤكد علماء الأنثروبولوجيا أن دراسة السلوك الإجرامي يستلزم الإلمام بالأنماط الثقافية السائدة في المجتمع.

5.4 الأسرة: أثبت العديد من الدراسات أن الاختلالات التي تصاب بها الأسرة، تؤثر

في تنشئة الأطفال وتشوه شخصياتهم إلى درجة تدفعهم إلى السلوك الجانح، وإلى درجة صدق عليها القول أن جانح اليوم هو مجرم الغد. (محمد، 2012) فالتفكك الأسري هو أحد أخطر المظاهر المسببة لجنوح الأحداث، ويرمز الباحثين إلى هذا التفكك بالتصدع

الأسري، الذي ينقسم بدوره إلى تفكك مادي وتفكك معنوي، فقد دلت دراسة أجريت في فرنسا على أن 90% من الأطفال الجانحين هناك ينتمون إلى أسر مفككة، وكان السبب في أغلب هذه الحالات انفصال أو طلاق أحد الوالدين، في حين أجريت دراسة في الإمارات العربية على أن الجانحين ينتمون إلى أسر مفككة والتي نكبت بالزواج الثاني من قبل أحد الوالدين.

6.4. التقدم العلمي: يساعد تطور عقل الإنسان نحو تحقيق رفاهيته في الكثير من مجالات الحياة، وقد ساعد العلم الحديث في خلق جو من الترف، لكن للأسف لكل جانب حضاري شق سلبي يستعمله البعض في الإفساد وارتكاب الجرائم، فقد تم استغلال الأنواع المختلفة للأسلحة واستغلال سرعة الإطلاق وكاتم الصوت في مقاومة الشرطة وإزهاق روح الناس في أماكن مأهولة دون إحداث ضجيج، كما أسيء استعمال التحاليل الكيميائية في التزوير، أو استعمال أجهزة السكانير في تزيف العملة والوثائق. وقد انتقلت الجريمة من الطور العادي إلى العالم الافتراضي عبر الإنترنت وظهر ما يعرف بالجريمة السيبرانية، فتم إرتكاب النصب والتزوير الإلكتروني والقرصنة والتجسس على الحسابات الخاصة بالمؤسسات العمومية والبنكية والمصرفية، كما ظهرت جريمة الإتلاف المعلوماتي وإختراق المنظومة المعلوماتية، وكذلك الحصول على معلومات وبيعها لمن يستحقها. (وداعي، 2021)

5. خاتمة:

كانت الجريمة في بادئ الأمر مادة دسمة في الموائد الطبية، بحيث شُخص المُجرم تشخيصاً سريريا انطلاقاً من الكشف عن البنية التشريحية له. وفي إطار المد والجزر العلمي آلت هذه الأطروحة للزوال، ما أدى بالورثة الشرعيين لمدرسة لومبروزيانا للبحث عن بديل فكري يروي ضمناً خبيثتهم المنهجية. وإعمالاً بمبدأ الرجوع للأصل فضيلة، فكما ابتدأت الأنثروبولوجيا بدراسة "الأخر" وفقاً لنمط ثقافته فإنها تعود عن بدء، لدراسة المجرم "الأخر" في صميم قلب ثقافته، من هنا تتأتى بصمة الثقافة كمفتاح موضوعي للخطاب الأنثروبولوجي. خلصت الدراسة إلى أن الجريمة هي نتيجة تفاعل المكونات

الداخلية والخارجية للذات المجرمة في قالب تركيبي شامل ، التي تجمع بين دياليكتيك المتأصل والمكتسب. على إثره، بات لزاما تكثيف جهود العلوم الانسانية والاجتماعية للإلمام بالقضايا الراهنة والتركيز على التمشكلات التي يُخلفها الكائن المُتأنسن، انطلاقا من قلب الحياة اليومية المُشبعة بالرموز المُقبولة من عمق الثقافة.

5. قائمة المراجع:

1. المؤلفات:

1. الدوري، عدنان. (1984). *أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي*. الكويت: منشورات دار السلاسل.
2. الغدامي، عبد الله. (2021). *العقل المؤمن والعقل الملحد*. السعودية: دار العبيكان للنشر.
3. الوريكات، عبد الله أحمد. (2010). *مبادئ علم الإجرام*. الأردن: دار وائل للنشر.
4. الوريكات، عواد عايد. (2004). *نظريات علم الجريمة*. الأردن: دار الشروق للنشر.
5. بوخريسة، بوبكر. (2020). *أنثروبولوجيا الجريمة..من أسطورة قابيل إلى المجرم بالولادة*. الأردن: مركز الكتاب الأكاديمي.
6. تايلور، كاثلين تر الهنساوي، فردوس. (2014). *القسوة شرور الإنسان والعقل البشري*. مصر: المركز القومي للترجمة.
7. خلفي، عبد الرحمان و وداعي، عزالدين. (2021). *علم الإجرام*. الجزائر: دار بلقيس للنشر.
8. رشوان، عبد الحميد حسين. (2005). *علم الإجتماع الجنائي*. مصر: المكتب الجامعي الحديث.

9. صالح ،علي عبد الرحيم. (2013). علم النفس الوراثي. الأردن: دار الصفاء للنشر والتوزيع .
10. طالب، أحسن. (2002). الجريمة والعقوبة والمؤسسات الإصلاحية. لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
11. فارانت، فينولا ترجمة سيف الدين ،أحمد. (2020). الجريمة والسجون والثقافة. الإمارات العربية المتحدة: مركز الإمارات للبحوث والدراسات الإستراتيجية.
12. محمد نصر، محمد. (2012). الوسيط في علم الإجرام والعقاب. السعودية: مكتبة القانون والإقتصاد.
13. مصباح ،عامر. (2013). المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا. مصر: دار الكتاب الحديث.
14. منصور، ابراهيم إسحاق. (1979). الموجز في علم الإجرام والعقاب. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
15. نشأت، أكرم حسن . (2008). علم الأنثروبولوجيا الجنائي. الأردن: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 16.Lombroso, cesare tr gibson, mary and rafter,nicole.(2006) criminal man London: duke university press.

2.المقالات:

- مجيديلة، إبراهيم. (2017). أنثروبولوجيا الإنسان الخطاء. مجلة تبين ، 5 (19).
تم الاسترجاع:

<https://www.dohainstitute.org/ar/ResearchAndStudies/Pages/art1114.aspx>



- Alice Orru. paolo marzolo and cesare lombroso a semiotic medical inheritance. (2023) chinese semiotic studies revue, (3) 19.
https://www.academia.edu/87415725/A_Semiotic_Medical_Inheritance_Cesare_Lombroso_and_Paolo_Marzolo
- Angelo di caterino. lombroso s face across phsiognomy and semiotics.(2023) chinese semiotic studies revue, (3) 19.
<https://www.degruyter.com/document/doi/10.1515/css-2023-2013/html>
- jonnathan dunnage and others. cesare lombroso 1835-1909.(2018) crime, history,socities revue (2) 22
<https://journals.openedition.org/chs/201?lang=en>.